

الصحابي عبد الله بن رواحة

من الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه

محمد سليمان

ظلت وما زالت الصحبة ومدرستها النبوية المقدسة شجرة طيبة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وظل الصحابي الصادق المخلص وما زال غصناً يانعاً مباركاً، وينبوعاً لا يعرف النضوب، ومادام ملتزماً بمبادئ هذه المدرسة الربانية وبسيرتها وأخلاقها ومناهجها، ومادام وفياً لصاحبها ومؤسسها رسول الرحمة محمد بن عبد الله ﷺ.

فالصحبة نبع ثرّ وبضاعة لا تبور، تغني تراثنا وأجيالنا وموائدنا العلمية والعبادية والأدبية والأخلاقية من خزينها وما ورثته لنا من خير عميم وعطاء جزيل وعلم نافع وتضحية كبيرة... لا يمكننا الاستغناء عنها وعن تاريخها الحافل بكل معنى جميل وقيمة عالية، أما رؤاد هذه المدرسة فقد اختلفت منازلهم، فشأنهم شأن كل التلاميذ والطلبة، منهم الجاد والمخلص في استيعاب دروسها ومبادئها، ومنهم دون ذلك، ومنهم المتخلف عنها حتى صار عائلةً عليها بل ظلّ مسيئاً إليها، فالصحابة ليسوا كلهم في الفضل سواء وإن زعمنا هذا فهو ظلم للمدرسة ولصاحبها ولرؤادها المخلصين. وكيف نزعم هذا لهم وقد فضل الله تعالى الرسل بعضهم على بعض وهم الأفضل والأكرم والأقرب إليه تعالى من غيرهم، فقال: ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ﴾؟! والتفضيل حالة توافق طبيعة

الأشياء، فما من شيء في الدنيا إلا والتفاضل جارٍ فيه .
ولا يضرّ هذه المدرسة السماوية بل ولا يفيدها من
انحرف عنها وشطّط به قدماء بعيداً عن أسسها ومتبنياتها، كما
لا يضر ذلك في سمعة الصحابة الآخرين الذين أجزم أنّ
بعضهم كان صناعة خاصة، أعدّتهم السماء واختارتهم
وتفضّلت بهم علينا جميعاً؛ ليصوغوا لنا تاريخاً مليئاً بكلّ
معاني الخير، وحاضراً كلّ عطاء، ومستقبلاً زاهراً بالأمل
مشرقاً بالحب، بعيداً عن العداوة والبغضاء .

إنّهم بحقّ جيلاً قد لا يكون له نظير فيما مضى من تأريخ
الرسالات وفيما هو آت إلا عند القلّة القليلة النادرة .

فهيّتّهم هذه المدرسة، وصاغتهم لتبليغ أعظم رسالة
سماوية وأعظم دين خاتم للديانات، فغيروا أمة جاهلية بل
غيروا أمماً أخرى فتغيّر وجه التاريخ، فاستحقوا بذلك العظيم
في الدنيا والآخرة، وغدوا من ورثة جنة النعيم، يتبوأون فيها
غرفاً، وينعمون بها، ويمرحون في مجبوحه منها .

ولا غرابة في ذلك بعد أن أحبوا الله ورسوله، وطلبوا
رضوانه تعالى وملئوا شوقاً إلى لقائه، يطلبون الموت
ويتحاثّون عليه .

كم كانت تربيتك يا رسول الله لهذه النخبة الطيبة نافعة
خالدة!

وكم كان حبّهم واحتفاؤهم بك يا رسول الله عظيماً
صادقاً حتى شهد به أبو سفيان وهو يعيش العداة كلّها
والكراهية كلّها لرسول الله ودينه وصحبه :

ما رأيت من الناس أحداً يحبّ أحداً كما يحبّ أصحاب

محمّد محمداً!

ونحن ما إن ننتهي من تاريخ واحد منهم حتى ندخل تاريخ آخر يكمل الصورة المشرقة لهذه المدرسة ولهذه الصحبة ولما تتوفر عليه من مبادئ وقيم عالية .

والصحابي الذي بين أيدينا هو واحد من الذين لم يفتأ سيفهم يطارد فلول الوثنية المقهورة وأذيالهم المدحورة، وانجلت فروسيته ومضاؤه في معارك الإسلام الكبرى في معركة بدر وفي معركة أحد وفي الخندق ويوم الحديبية وخيبر، وهو ينتضي سيفيه الباترين - كما يعبر السيد الجميلي - سيف في يده، وآخر في لسانه، فأخذ يحصد أعداءه ويضرب الباطل فيهم على أم رأسه في غير هواده أو رحمة^(١). إنّه الصحابي الجليل، المؤمن المجاهد، والكاتب الشاعر، الخزرجي: عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن عمرو بن أمّ القيس الأكبر بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث، هذا نسبه من أبيه وقد وقع فيه اختلاف .

**كم كانت تربيتك يا رسول الله لهذه النخبة الطيبة نافعة خالدة!
وكم كان حبّهم واحتفاؤهم بك يا رسول الله عظيماً صادقاً حتى
شهد به أبو سفيان وهو يعيش العداء كلّه والكراهية كلّها لرسول الله
ودينه وصحبه :
ما رأيت من الناس أحداً يحبّ أحداً كما يحبّ أصحاب محمّد**

أمّا نسبه من أمّه، فهي كبشة بنت واقد بن عمرو بن الإطنابة ابن عامر بن زيد مناة .
وأمّا كنيته فهو يكتنّى بـ (أبو محمد)، ويقال له: أبو رواحة، ويقال له أيضاً: أبو عمرو الأنصاري .

(١) صحابة النبي ﷺ للدكتور السيد الجميلي: ٢٦٤ .

إسلامه

كان من الذين منَّ الله تعالى عليهم، يوم العقبة الأولى، حيث شهدها مبايعاً رسول الله ﷺ مع نخبة من الخزرج، وشهدا نقيباً حيث كان من الاثني عشر نقيباً، ولم يكتف بهذا، بل شهد العقبة الثانية مع جمع كبير من الأنصار والذين كانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين.

وكان واحداً ممن اعترضوا ناقة رسول الله حين وازنت دار بني الحارث بن الخزرج - وكان هذا يوم اعتراض القبائل في يثرب لناقة رسول الله ﷺ تبتغي نزولها عندها - فاعترضها منهم سعد بن الربيع، وخارجة بن زيد، وعبدالله بن رواحة في رجال من بني الحارث بن الخزرج، فقالوا: يا رسول الله هلم إلينا، إلى العدد والعدة والمنعة، فقال لهم: خلوا سبيلها، فإنها مأمورة، فخلوا سبيلها، فانطلقت... وكان له موقف آخر يتصف بالقوة والرغبة العظيمة في سماع آيات القرآن وما يبشر به رسول الله ﷺ وينذر:

فعن زيد بن حارثة قال: ركب رسول الله ﷺ إلى سعد بن عبادة يعود من شكوى أصابه على حمار عليه إكاف، فوفقه قطيفة فدكية، محتطمة بحبل من ليف، وأردفني رسول الله ﷺ خلفه، قال: فمرّ بعبد الله بن أبي، وهو في ظلِّ مراحم أطمه (الحصن، وأطام المدينة سطوحها...)، وحوله رجال من قومه، فلما رآه رسول الله ﷺ تذمم أي استنكف واستحيا من أن يجاوزه حتى ينزل، فنزل فسلم، ثم جلس قليلاً فتلا القرآن ودعا إلى الله عزّ وجلّ وذكر بالله وحذّر، وبشر وأنذر. وهو زام لا يتكلم، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من مقالته، قال: يا هذا، إنّه لا أحسن من حديثك هذا، إن كان حقاً فاجلس في بيتك، فمن جاءك له فحدثه إياه، ومن لم يأتك فلا تغتبه به [أي لا تثقل عليه] ولا تأته في مجلسه بما يكره منه.

وهنا انبرى عبدالله بن رواحة قائلاً في رجال كانوا عنده من المسلمين: بلى، فاغشنا به، وائتنا في مجالسنا ودورنا وبيوتنا.

ثمّ واصل كلامه هذا قائلاً:

فهو والله ممّا نحبّ، وممّا أكرمنا الله به وهدانا له .
فما كان من عبدالله بن أبي حيث رأى - بعد مقالة عبد الله بن رواحة - من
خلاف قومه ما رأى، إلا أن أنشد قائلاً:

متى ما يَكُن مولاك خصمك لا تزل
تذلل ويصرعك الذين تصارع!
وهل ينهض البازي بغير جناحه
وإن جُدَّ يوماً ريشه فهو واقع^(١)

وكان عبد الله بن رواحة ممّن شهدوا معركة بدر، وهو من الفتية من الأنصار
وهم: عوف ومعوذ بن الحارث وأمّهما عفراء، وعبدالله بن رواحة خرجوا لمقاتلة
عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة من رجال قريش المشركين الذين
دعوا المسلمين إلى المبارزة في أول وقعة بدر الكبرى، فقالوا: من أنتم؟
فقالوا: رهط من الأنصار.

قالوا: ما لنا بكم من حاجة .

ثم نادى مُناديهم: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا .

وكأنهم لم يروا في فتية الأنصار أكفاء لهم .

فقال ﷺ: قم يا عبدة بن الحارث!

وقم يا حمزة!

وقم يا علي!

فلما قاموا ودنوا منهم، قالوا: نعم،

أكفاء كرام، فبارز عبدة - وكان أسنّ القوم - عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبه بن
ربيعة، وبارز علي الوليد بن عتبة . فأما حمزة فلم يهل شيبه أن قتله، وأمّا علي فلم

وكان عبد الله بن رواحة ممّن
شهدوا معركة بدر، وهو من الفتية
من الأنصار

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٥٨٦ - ٥٨٧ .

يهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين، كلاهما أثبت صاحبه، وكرّ حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فذقفا عليه أي أسرعا قتله. واحتملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابه.

وفي رواية أن عتبة بن ربيعة قال للفتية من الأنصار وكان منهم - كما قلنا - ابن رواحة حين انتسبوا: أكفاء كرام، إنما نريد قومنا^(١). ثم خاض الجميع معركة بدر وحققوا نصراً عظيماً.

وشهد - بعد ذلك - معارك الإسلام الأخرى، معركة أحد ومعركة الخندق ويوم الحديبية وخيبر مقاتلاً عنيداً، وشهد مؤتة في غزوة الأمراء أميراً ثم شهيداً. وكان هذا الصحابي الجليل - إضافة إلى كونه شاعراً بارزاً - كان كاتباً، فهو من القلة الذين يجيدون الكتابة في الجاهلية حيث كانت الكتابة في العرب قليلاً.

رحم الله ابن رواحة، كان أينما أدركته الصلاة أناخ

وقد كلفه رسول الله ﷺ بمسؤوليات عديدة، منها أنه قدّمه في بدر يبشّر أهل العالية بما فتح الله عليه، والعالية: بنو عمرو بن عوف وخطمة ووائل. واستخلفه رسول الله ﷺ على المدينة حين خرج إلى غزوة بدر الوعد. وبعثه رسول الله ﷺ سرية في ثلاثين راكباً إلى أسير بن زارم اليهودي بخيبر فقتله، ثم بعثه إلى خيبر خارصاً كما يأتينا.

ومما قاله رسول الله ﷺ فيه:

رحم الله ابن رواحة، كان أينما أدركته الصلاة أناخ.

إنه سيلقى حجته، فعن أنس أنه قال:

كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فأصابنا مطر وريداغ [والردغ والرذغة والرذعة: الماء والطين والوحل الكثير الشديد، والجمع، رداغ وردغ. أنظر

(١) أنظر السيرة النبوية ٢: ٦٢٥.

اللسان: ردغ].

فأمرنا رسول الله ﷺ أن نصلي على ظهور رواحنا.

قال: ففعلنا، ونزل ابن رواحة فصلى في الأرض.

قال: فسعى به رجل من القوم فقال: يا رسول الله أمرت الناس يصلون على

ظهور رواحهم ففعلوا، ونزل ابن رواحة فصلى في الأرض.

قال: فبعث إليه فقال: ليا تينكم وقد لقي حجته.

قال: فأتاه، فقال رسول الله ﷺ: يا ابن رواحة، أمرت الناس أن يصلوا على

ظهور رواحهم، نزلت وصليت في الأرض!

قال: فقال: يا رسول الله؛ لأنك تسعى في رقبة قد فكها الله، وإنما أنا نزلت

لأسعى في رقبة لم تفك.

فقال رسول الله ﷺ: ألم أقل لكم إنه سيلقى حجته؟!

وفي رواية أخرى أن رسول الله ﷺ خرج في سرية، فأدركته الصلاة

وهو على ظهر، فصلى رسول الله ﷺ على ظهر، ونزل ابن رواحة فصلى

بالأرض، ثم أتى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: يا ابن رواحة، أرغبت عن

صلاتي؟!

قال: لست مثلك، إنك تسعى في عتقٍ ونحن نسعى في رق، فلم يعب عليه

ما صنع.

وقد فرّق أو ميّز رسول الله ﷺ في هذا بين ابن رواحة ورجل آخر،

حين خرج رسول الله ﷺ في سرية فصلى بأصحابه على ظهر، فاقتحم رجل

من الناس فصلى على الأرض، فقال: خالف خالف الله به، فما مات حتى خرج

من الإسلام.

وفرق كبير بين هذا وذاك، فذاك رجل اختبر رسول الله - كما يبدو - إيمانه

وإخلاصه... فيما ظهر نفاق هذا وبعده عن الإيمان.

ابن رواحة وآيات قرآنية:

في رواية: لما نزلت الآية: ﴿والشعراء يتبعهم الغاؤون﴾^(١) قال عبدالله بن رواحة: قد علم الله أنّي منهم، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾^(٢).

حتى ختم الآية.

وعن ابن عباس أنّ الآية المباركة ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا﴾^(٣).

نزلت في جماعة كان منهم عبدالله بن رواحة.

لقد انقضت أسارير وجهه حيث نزل الآية الأولى، واغتم غمّاً عظيماً وذهبت به الظنون كلّ مذهب حتى نزلت الآية الأخرى، التي أزالته عن صدره هذه الظنون وذلك الغم.

وفي قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون إنّ الله يحبّ الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنّهم بنيانٌ مرصوص﴾^(٤).

في نفر من الأنصار منهم عبدالله بن رواحة. قالوا في مجلس: لو نعلم أي الأعمال أحبّ إلى الله عزّ وجلّ لعملنا به حتى نموت، فلما نزلت فيهم، قال ابن رواحة: ولا أزال حبيساً في سبيل الله عزّ وجلّ حتى أموت، فقتل شهيداً رحمة الله عليه.

وفي رواية أنّ رسول الله ﷺ دفع إلى نفر من أصحابه فيهم عبدالله بن رواحة يذكرهم الله، فلما رأى رسول الله ﷺ سكت، فقال رسول الله ﷺ: ذكّر أصحابك،

(١) الشعراء: ٢٢٤.

(٢) الشعراء: ٢٢٧.

(٣) الشعراء: ٢٢٧.

(٤) الصف: ٤-٢.

فقال: يا رسول الله، أنت أحقّ مني .
قال: أما إنكم الذين أمرني الله أن أصبر نفسي معهم، ثمّ تلا عليهم: ﴿واصبر
نفسك مع الذين يدعون ربّهم﴾^(١).
الآية إلى آخرها.

قال: وما قعد عدتكم قطّ يذكرون الله إلّا قعد معهم عددهم من الملائكة . فإن
حمدوا الله حمدوه، وإن استغفروا الله أمّنوا، ثمّ عرجوا إلى ربّهم، فسألهم وهو أعلم
منهم، فقال: أين ومن أين؟
قالوا: ربّنا، عبيد لك من أهل الأرض ذكروك فذكرناك .
قال: ويقولون: ماذا؟

قالوا: ربنا حمدوك، فقال: أول من عبّد وآخر من حمّد .
قالوا: وسبّحوك .
قال: مدحي لا ينبغي لأحد غيري .
قالوا: كبّروك .
قال: لي الكبرياء في السموات والأرض وأنا العزيز الحكيم .
قالوا: ربّنا استغفروك .
قال: إني أشهدكم أني قد غفرت لهم .
قالوا: ربنا فيهم فلان وفلان؟!

(١) الكهف: ٢٨.

قال : هم القوم لا يشق بهم جليسمهم .
 - وفي الآية ﴿لَأُمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾^(١) .
 عن ابن عباس أنّها نزلت في عبدالله بن رواحة ، وكانت له أمة سوداء ، وإنّه غضب عليها فلطمها ، ثم إنه فرغ فألقى النبي ﷺ فأخبره خبرها .
 فقال له النبي ﷺ : ما هي يا عبدالله؟
 قال : هي تصوم ، وتصلي ، وتحسن الوضوء ، وتشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسوله .

فقال : يا عبدالله هذه مؤمنة .
 فقال عبدالله : فوالذي بعثك بالحق لأعتقنّها ولأتزوجنّها . ففعل .
 فطعن عليه ناسٌ من المسلمين وقالوا : نكح أمة ، وكانوا يريدون أن يُنكحوا إلى المشركين ويُنكحوهم رغبةً في أحسابهم .
 فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم﴾ .

ابن رواحة ثالث ثلاثة شعراء

كان ابن رواحة شاعراً مجيداً ، وقد نقل لنا الرواة مقاطع من شعره ، وعدّوه واحداً من ثلاثة شعراء عرفتهم الصحبة النبوية المباركة ، ونالوا منها حظاً وافراً ، وموقعاً إعلامياً ضرورياً ، لا تستغني عنه أي حركة تغييرية خاصة في بيئة كذلك التي احتلّ فيها الأدب والشعر بالذات مكانة مرموقة ، بل دخل كلّ معالم ومفاصل حياتهم ونواحيها المتعددة حتى غدا وسيلتهم الإعلامية الأولى والمحبة ، التي يتجاوبون ويتفاعلون معها ، فهي التي تخاطب عقولهم وقلوبهم ومشاعرهم ، كما أنّها ، أي الشعر والنثر - إضافة إلى أنّها وسيلتان إعلاميتان مهمتان - مدرستان تثقيفيتان متنقلتان تربيان النفوس ، بما تحمّلانه من معان حسنة أو سيئة ؛ لهذا ولغيره راحت المدرسة النبوية تستثمرهما - بعد تهذيبهما من شوائب الجاهلية - في

(١) البقرة: ٢٢١ .

خدمة الإسلام ودعوته الخالدة وبأيامها ومواقعها المشهودة .
 فكان عبدالله بن رواحة وهو الذي عرف في أوساطهم بكونه شاعراً من
 الطراز الأول، راحت كتب التاريخ والأدب تذكر لنا شعره وأراجيزه وهو يقاتل،
 وهو يطوف، وهو يدعو إلى الله تعالى، وهو يهاجم أعداء الله ورسوله... واحداً
 من ثلاثة شعراء عرفتهم الصحبة النبوية وعرفهم العصر الأول للإسلام ودعوته،
 وهم: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وثالثهم الصحابي الجليل ابن رواحة .
 وفي جوابه عن سؤال يقال: إن رسول الله ﷺ وجهه له يوماً:
 ما الشعر؟

**كان ابن رواحة شاعراً مجيداً، وقد نقل لنا الرواة مقاطع من
 شعره، وعدّوه واحداً من ثلاثة شعراء عرفتهم الصحبة النبوية
 المباركة، ونالوا منها حظاً وافراً، وموقفاً إعلامياً ضرورياً**

قال: شيء يختلج في صدر الرجل، فيخرجه على لسانه شعراً .
 قال: فهل تستطيع أن تقول شيئاً الآن؟
 فنظر في وجه رسول الله ﷺ فقال: نعم، فأنشده من البسيط ثمانية أبيات منها:

إنني توسمت فيك الخير نافلةً والله يعلم إنني ثابت البصر
 فثبت الله ما آتاك من حسن تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا

وعنه رحمه الله أنه قال: مررت بالنبي ﷺ وهو جالس في نفر من أصحابه،
 فأضب القوم [أي تكلموا متتابعاً]: يا عبدالله بن رواحة، يا عبدالله بن رواحة،
 فعرفت أن رسول الله ﷺ دعاني، فانطلقت إليهم مسرعاً، فسلمت .
 فقال: ها هنا، فجلست بين يديه .

فقال - كأنه يتعجب من شعري - : كيف تقول الشعر إذا قلت؟
 قلت: أنظر في ذلك ثم أقول .

فقال : فعليك بالمشركين .

قال : ولم أكن أعددت شيئاً ، فأنشدته ، فلما قلت :

فخبروني أثمان العباء متى كتتم بطاريق أو دانت لكم مضر

قال : فكأني عرفت في وجه رسول الله ﷺ الكراهية أن جعلت قومه أثمان

العباء ، فقلت :

نُجَالِدُ النَّاسَ عَنْ عُرْضٍ فَنَأْسِرُهُمْ فِينَا النَّبِيُّ وَفِينَا تُنْزَلُ السُّورُ
وَقَدْ عَلِمْتَهُمْ بَأْنَا لَيْسَ يَغْلِبُنَا حَيِّ مِنَ النَّاسِ إِنْ عَزَّوْا وَإِنْ كَثُرُوا
يَا هَاشِمَ الْخَيْرِ إِنْ اللَّهُ فَضْلَكُمْ عَلَى الْبَرِيَّةِ فَضْلاً مَا لَهُ غَيْرُ
إِنِّي تَفَرَّسْتُ فِيكَ الْخَيْرَ أَعْرِفْهُ فِرَاسَةً خَالَفْتَهُمْ فِي الَّذِي نَظَرُوا
وَلَوْ سَأَلْتُ أَوْ اسْتَنْصَرْتُ بَعْضَهُمْ فِي جَلِّ أَمْرِكَ مَا أَوَّوْا وَلَا نَصَرُوا
فَثَبَّتَ اللَّهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنِ تَثْبِيتِ مُوسَى وَنَصْرًا كَالَّذِي نَصَرُوا

فأقبل عليّ بوجهه متبسماً ثم قال : وإياك فثبت الله .

وتصدى ثلاثة من كفار قريش وهم : أبو سفيان بن الحارث ، وعمرو بن

العاص ، وابن الزبيري ليهجوا رسول الله ﷺ وأصحابه .

فقال قائل لعليّ : أهج عنا هؤلاء القوم الذين قد هجونا .

فقال عليّ : إن أذن لي رسول الله ﷺ فعلت .

فقال الرجل : يا رسول الله ، أتأذن لعليّ كما يهجو عنا هؤلاء القوم الذين قد

هجونا؟

فقال : ليس هناك ... ثم قال للأنصار : ما يمنع القوم الذين قد نصرُوا

رسول الله ﷺ بسلاحهم وأنفسهم أن ينصروه بألسنتهم؟

فقال حسان بن ثابت : أنا لها يا رسول الله وأخذ بطرف لسانه ، فقال : والله ما

يسرني به مقولاً بين بصرى وصنعاء .

فقال له رسول الله ﷺ: وكيف تهجوهم وأنا منهم؟
 فقال: إني أسلُّك منهم كما تُسلُّ الشعرة من العجين.
 فكان يهجوهم ثلاثة من الأنصار يجيبونهم: حسان بن ثابت، وكعب بن
 مالك، وعبدالله بن رواحة.

فكان حسان بن ثابت وكعب بن مالك يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع
 والأيام والمآثر ويعيرونهم بالمثالب.
 وكان عبدالله بن رواحة يعيرونهم بالكفر وينسبهم إلى الكفر، ويعلم أنه ليس
 فيهم شرٌّ من الكفر.

وكانوا في ذلك الزمان أشدَّ القول عليهم قول حسان بن ثابت وكعب بن
 مالك، وأهون القول قول عبدالله بن رواحة. فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشدَّ
 القول عليهم قول عبدالله بن رواحة.

وفي يوم الخندق، حيث كان رسول الله ﷺ ينقل التراب حتى وارى التراب
 شعر صدره المبارك، راح عبدالله بن رواحة هذا الصحابي الجليل يرتجز قائلاً:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا	ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينةً علينا	وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأولى قد بغوا علينا	وإن أرادوا فتنةً أبينا

وكان ارتجازه هذا تلبية لأمر رسول الله ﷺ حينما قال له: أنزل فحرك بنا
 التراب.

وبعد أن أنشد أرجوزته المذكورة دعا رسول الله ﷺ له قائلاً: اللهم ارحمه.
 وفي شعره وهو يمدح رسول الله ﷺ حين يقول:

وفينا رسول الله يتلو كتابه	إذا انشق معروف من الفجر ساطع
يبيتُ يجافي جنبه عن فراشه	إذا استثقلت بالمشركين المضاجع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا	به موقنات أن ما قال واقع

هذا لعمرى من معاريض الكلام...

ونسب لهذا الصحابي لطائف أضحكت رسول الله ﷺ:

فقد كانت لعبدالله بن رواحة جارية يستسرّها سرّاً عن أهله، فبصرت به
أمرأته يوماً قد خلاهما، فقالت: لقد اخترت أمتك على حرّتك، فجاحدها ذلك.
قالت: فإن كنت صادقاً فاقراً آية من القرآن، وفي رواية: وقد عهدته لا يقرأ
القرآن وهو جنب.
فقال من الوافر:

شهدتُ بأنَّ وعدَ الله حقٌّ وأنَّ النارَ مثنوى الكافرينا

قالت: فزدني آية أخرى، فقال:

وأنَّ العرشَ فوقَ الماءِ طافٍ وفوقَ العرشِ ربُّ العالمينا

فقالت: زدني آية أخرى، فقال:

وتحمّله ملائكةٌ كرامٌ ملائكةُ الإلهِ مقربينا

وفي ديوانه... شدادٌ... مؤمنينا

فقالت: آمنت بالله وكذبت بصري.

فأتى ابن رواحة رسول الله ﷺ فحدّثه، فضحك رسول الله ﷺ ولم يغيّر

عليه.

وزاد في رواية بمعناه، فقالت له: أما إذا قرأت القرآن فيائي قد عرفت أنه

مكذوب عليك.

فافتقدته ذات ليلة، فلم تجده على فراشها، فحبست نفسها، فلم تنزل تطلبه

حتى قدرت عليه في ناحية الدار، فقالت: الآن صدقت فيما بلغني، فجحدها،

فقالت: اقرأ الآيات من القرآن إن كنت صادقاً، فإنك إن كنت جنباً لم تقرأ، فقال

من الطويل :

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشقَّ معروف من الصبح ساطعُ
لبيت يجافى جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالكافرين المضاجعُ
أتى بالهدى بعد العمى فقلوبنا له موقوفات أن ما قال واقعُ
وأعلم علماً ليس بالظنّ أنني إلى الله محشورٌ هناك وراجعُ

فحدث رسول الله ﷺ بذلك ، فاستضحك حتى ردّ يده على فيه ، وقال :
هذا لعمرى من معاريض الكلام ، يغفر الله لك يا ابن رواحة ، إن خياركم
خيركم لنسائكم .

فأخبرني ما الذي ردّت عليك ، حيث قلت ما قلت ؟
قال : قالت لي : الله بيني وبينك ، أما إذ قرأت القرآن فإني أتهم ظني
وأصدقك .

فقال رسول الله ﷺ : لقد وجدت لها ذات فقه في الدين (١) .

ابن رواحة في عمرة القضاء

بعد رجوعه ﷺ إلى المدينة من خيبر منتصراً ، أقام في المدينة شهري ربيع
وجماديين ورجباً وشعبان ورمضان وشوالاً ، ثمانية أشهر ، وكان يبعث فيما بين ذلك
من غزوه وسراياه ﷺ .

بعدها خرج ﷺ من المدينة في شهر ذي القعدة من سنة سبع للهجرة النبوية ،
قاصداً مكة معتمراً عمرة القضاء ، بعد أن صدّه مشركو مكة عنها عام الفتح في
شهر ذي القعدة سنة ستّ ، وسمي شهر الصدّ ، وهو من الأشهر الأربعة الحرم ،
ثلاثة سرداً أي متتابعة (ذوالقعدة وذوالحجة والحرم ، وواحد فرد وهو رجب) . فيما
سميت عمرة شهر ذي القعدة من العام السابع بعمرة القصاص ، لأنّ المشركين صدّوا

(١) أنظر مختصر تاريخ دمشق ١٢ : ١٥٨-١٥٩ .

رسول الله ﷺ في شهر ذي القعدة في الشهر الحرام من سنة ستّ، فاقتص رسول الله ﷺ منهم، فدخل مكة في الشهر نفسه الذي صدّوه فيه من سنة سبع، وقد أنزل الله تعالى في ذلك ﴿والحرّاتِ قصاص﴾^(١).

وقد خرج مع رسول الله ﷺ المسلمون ممّن كان صدّ معه في عمرته، وعدّتهم كانت ألفين سوى النساء والصبيان.

وحين دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء هذه دخلها وكان الصحابي الجليل عبدالله بن رواحة أخذاً بخطام ناقه رسول الله وهو يرتجز قائلاً:

خلّوا بني الكفار عن سبيله	خلّوا فكلّ الخير في رسوله
يا ربّ إنّي مؤمن بقبيله ^(٢)	أعرف حقّ الله في قبوله
نحن قتلناكم على تأويله	كما قتلناكم على تنزيله ^(٣)
ضرباً يزيل الهام عن قبيله	ويذهل الخليل عن خليله

(١) البقرة: ١٩٤.

(٢) بقبيله: أي قوله.

(٣) أي نحن نقاتلكم على إنكار تأويله، كما قتلناكم على إنكار تنزيله.

والذي يبدو أن (نحن قتلناكم على تأيله... ويذهل الخليل عن خليله) كانت للصحابي الجليل عمار بن ياسر رضوان الله عليه، ارتجز بهما في غير هذا اليوم أي يوم معركة صفين التي دارت رحاها بين جيش الإمام عليؑ وجيش البغاة بقيادة معاوية بن أبي سفيان، وقد استشهد فيها عمار بن ياسر رحمه الله تعالى. والدليل على هذا، وهو ما ذكره ابن هشام صاحب السيرة، أن ابن رواحة إنما أراد المشركين، والمشركون لم يقرّوا بالتنزيل وإنما يُقتل على التأويل من أقرّ بالتنزيل^(١).

ويقال: إن عمر بن الخطاب قال: يا ابن رواحة، في حرم الله وبين يدي رسول الله ﷺ تقول هذا الشعر؟ فقال رسول الله ﷺ: خلّ عنه يا عمر، فوالذي نفسي بيده لكلامه أشدّ عليهم من وقع النبل^(٢).

وبيّنا كان رسول الله ﷺ يطوف بالبيت في عمرة القضاء على بعير له، يستلم الركن بمحجن، كان عبدالله بن رواحة آخذاً بغرزه وينشد بين يديه من أرجازه:

يارب لولا أنت ما اهتدينا	ولا تصدّقنا ولا صلينا
فأنزلن سكيناً علينا	وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الذين قد بغوا علينا	وإن أرادوا فتنةً أبينا

هذا ما ذكره السيد الجميلي في كتابه صحابة النبي ﷺ دون أن يذكر مصدر هذا الشعر، فيما ذكر صاحب مختصر تاريخ دمشق وقال: إن هذه الأبيات كانت لابن رواحة يوم الخندق.

كما ذكرناها في حفر الخندق.

إذن فعبد الله بن رواحة كان حاضراً عمرة القضاء، ولم يحضر فتح مكة في

(١) أنظر السيرة النبوية لابن هشام ٤: ١٣.

(٢) أنظر مختصر تاريخ دمشق ١٢: ١٥٥.

شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة، لأنه استشهد في جمادى الأولى من السنة نفسها في معركة مؤتة فما نسب إليه من أشعار كان خطأً، والذي يبدو أن كعب بن مالك هو الذي كان يرتجز بين يدي رسول الله ﷺ في فتح مكة وليس عبدالله بن رواحة^(١).

من حكمه رضوان الله عليه

اتّسمت مواقفه وأحاديثه بالحكمة والموعظة الحسنة، وطالما كان يذكر إخوانه وأصحابه بما يرضي الله تعالى، وبما يشدّهم إلى ذكره سبحانه، فعن أبي الدرداء أنّه قال:

أعوذ بالله أن يأتي عليّ يوم، لا أذكر فيه عبدالله بن رواحة.
وراح أبو الدرداء يواصل حديثه عن إيمان ابن رواحة وحبّه لمجالس التفكير والذكر قائلاً:

كان إذا لقيني مقبلاً، ضرب بين تديي، وإذا لقيني مدبراً ضرب بين كتفي ثمّ يقول: يا عويمر، اجلس بنا فلنؤمّن ساعة، فنجلس فنذكر الله ما شاء، ثمّ يقول: يا عويمر، هذه مجالس الإيمان، إن مثل الإيمان مثل قيصك؛ بينما أنت قد نزعتَه إذ لبسته، وبينما أنت قد لبسته إذ نزعتَه، يا عويمر، للقلب أسرع تقلّباً من القدر إذا استجمعت غلياً^(٢).

ويقال: إنّ عبدالله بن رواحة - وقبل غزوة مؤتة - كان قد مرض مرضاً شديداً، حتى أغمي عليه، فكانت أخته عمرة تعدّد مآثره وتبكيه، فلما أفاق، قال لأخته: ما قلت فيّ شيئاً إلاّ أنبوني ووجوني، أي فلا تنبغي النياحة.
ونقل أنّه في مرضه هذا، عادته النبيّ ﷺ وهو مغمى عليه، فقال ﷺ: اللهم إن كان أجله قد حضر، فيسر عليه وإلاّ فاشفه.
فوجد خفةً وأفاق.

فقال: كأنّ ملكاً قد رفع مرزبة من حديد، (وكأنّه ردّ على نياحة أخته

(١) أنظر مختصر تاريخ دمشق ١٢: ١٥٥.

(٢) أنظر مختصر تاريخ دمشق ١٢: ١٥٧-١٥٨.

وتعدادها لمناقبه ومآثره)، ويقول: أنت كذا؟

فلو قلتُ: نعم، لقمعني بها.

كلّ هذا كان دليلاً على عدم رضاه عن ذكر مناقبه، وكان دليلاً على تواضعه وزهده في شأن الدنيا ومراتبها حتى وإن كان جديراً بها وأنه يناها بحق.

موقفان لابن رواحة مع يهود خيبر

الموقف الأول: غزا عبدالله بن رواحة يهود خيبر بأمر من رسول الله ﷺ، وقد أصاب فيها يُسير بن رزام، الذي كان يبذل جهوداً كبيرة في تجميع قبائل غطفان، استعداداً لغزو رسول الله ﷺ. فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن بعث إليه عبدالله بن رواحة في نفر من أصحابه، منهم عبدالله بن أنيس حليف بني سلمة، فلما قدموا عليه كلّموه وواعدوه وقربوا له وقالوا له: إنك إن قدمت على رسول الله ﷺ استعملك وأكرمك.

غزا عبدالله بن رواحة يهود خيبر بأمر من رسول الله ﷺ، وقد أصاب فيها يُسير بن رزام، الذي كان يبذل جهوداً كبيرة في تجميع قبائل غطفان، استعداداً لغزو رسول الله ﷺ

فلم يزلوا به حتى خرج معهم في نفر من يهود، فحملة عبدالله بن أنيس على بعيره وردفه، حتى إذا كان بالقرقرة من خيبر، على ستة أميال، ندم اليسير بن رزام على مسيره إلى رسول الله ﷺ. ففطن له عبدالله بن أنيس وهو يريد السيف، فاقتحم به، ثم ضربه بالسيف فقطع رجله، وضربه اليسير بمخرش في يده من شوقط، فأمّه في رأسه، وقتل الله يُسيراً، ومال كل رجل من أصحاب رسول الله ﷺ على صاحبه من يهود فقتله، إلا رجلاً واحداً أفلت على رجله أو على راحلته، فلما قدم عبدالله بن أنيس على رسول الله ﷺ تفل أي بصق بصاقاً خفيفاً على شجّته فلم تفح ولم تؤذه.

الموقف الثاني: فكما كان ابن رواحة عظيماً في إيمانه شجاعاً في جهاده، كان عظيماً في عفته، شجاعاً في عدله وزهده.

ففي رواية، أنّ رسول الله ﷺ قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم إلى قصرهم،... وكان عبدالله بن رواحة يأتهم بأمرٍ من رسول الله ﷺ في كلِّ عام فيُخرصها^(١) عليهم، ثمّ يضمنهم الشطر، فشكوا إلى رسول الله ﷺ شدة خرصه، وأرادوا أن يرشوه، فقال: يا أعداء الله، تطعموني السُّحت، والله لقد جئتكم من عند أحبّ الناس إليّ، وأنتم أبغض إليّ من عدتكم من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم وحيّ إياه على أن لا أعدل عليكم.

فكان جوابهم أن قالوا له: بهذا قامت السماوات والأرض.

فيما هناك رواية أخرى بهذا الخصوص تقول:

إنهم جمعوا حُلبيّاً من حُلبيّ نساءهم، فقالوا:

هذا لك، وخفّف عنا وتجاوز في القسم.

فما كان جواب ابن رواحة، الذي اتّسم موقفه هذا، كما مواقفه الأخرى بالشدة المتصفة بالعدل والحق، إلا أن أجابهم بقوله: يا معشر يهود، والله إنكم لمن أبغض خلق الله إليّ، وما ذلك بحاملي على أن أحيف عليكم، وأمّا الذي عرضتم عليّ من الرشوة، فإنها سُحتٌ وإنّا لا نأكلها.
قالوا: بهذا قامت السماوات والأرض^(٢).

ابن رواحة ثالث ثلاثة أمراء!

«هي إن شاء الله الشهادة!»

في جمادى الأولى سنة ثمان للهجرة النبوية، وفي قرية من أرض البلقاء من

(١) الخرص: خرص الشيء فهو خارص: أي حزر الشيء وقدره بالظن، يقال: خرص النخل والكرم: حَزَرَ ما عليه من الرطب تماًراً، ومن العنب زبيباً، وفي الحديث: «أنه صلى الله عليه وآله وسلم أمر بالخِرص في النخل والكرم خاصة». أنظر مصادر اللغة.

(٢) أنظر السيرة النبوية لابن هشام ٤: ٢٦٦ وتاريخ الطبري ٢: ٢٠٨، ومختصر تاريخ دمشق ١٢: ١٥٧.

الشام، وقعت معارك طاحنة اتّسمت بالضراوة والشدة بين جيش المسلمين وتعداده ثلاثة آلاف تحت إمرة ثلاثة من الأمراء المسلمين حتى سميت هذه الغزوة بغزوة جيش الأمراء. حيث خاضوا معركة لم يخض المسلمون معركة مثلها كما وصفت، وكان أعداء المسلمين من المشركين الروم قد ادّرعوا بالعتاد والأعداء ما يملأ السهل والجبل وما لا طاقة للمسلمين به.

وكان الصحابي عبدالله بن رواحة أحد أمراء هذا الجيش المسلم الثلاثة، الذين عينهم رسول الله ﷺ.

تقول الرواية:

بعث رسول الله ﷺ بعثة إلى مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان، واستعمل عليهم زيد بن حارثة وقال:

«إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس، وزاد الزرقاني: فإن قتل فليتربص المسلمون برجل من بينهم يجعلونه عليهم».

فتجهّز الناس ثمّ تهيّئوا للخروج، وهم ثلاثة آلاف، فلما حضر خروجهم ودّع الناس أمراء رسول الله ﷺ وسلّموا عليهم، فلما ودّع عبدالله بن رواحة مع من ودّع من أمراء رسول الله ﷺ بكى؛ فقالوا:

ما يبكيك يا بن رواحة؟ أو أنهم زعموا أنّ ابن رواحة بكى حين أراد الخروج إلى مؤتة، فبكى أهله حين رأوه يبكي.

فقال: أمّا والله ما بي حبُّ الدنيا ولا صباية بكم، أو والله ما بكيت جزعاً من الموت ولا صباية لكم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آيةً من كتاب الله عزّ وجلّ، يذكر فيها النار: ﴿وإن منكم إلاّ واردها كان على ربك حتماً مقضياً﴾ أو أنني بكيت من قول الله: (الآية) فقد علمتُ أنني وارد النار ولا أدري أو فلستُ أدري كيف لي بالصّدْر بعد الورود؛ أو فأيقنت أنني واردها ولم أدْرِ أنجو منها أو لا؟! فقال المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم، وردّكم إلينا صالحين.

وهنا أنشد عبدالله بن رواحة :

لكنتني أسأل الرحمن مغفرةً وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا^(١)
أو طعنةً بيدي حرّانٍ مُجهزةً بحربة تُنفذ الأحشاء والكبدا^(٢)
حتى يُقال إذا مروا على جدّتي أرشده الله من غازٍ وقد رشدا^(٣)

ثمّ إن القوم تهيّئوا للخروج، فأقى عبدالله بن رواحة رسول الله ﷺ فودعه،
ثمّ قال :

فثبت الله ما آتاك من حسن تثبيت موسى ونصراً كالذي نُصروا
إني تفرّست فيك الخير نافلةً الله يعلم أنني ثابت البصر
أنت الرسول فمن يُحرم نوافله والوجه منه فقد أزرى به القدر

وفي رواية :

أنت الرسول فمن يحرم نوافله والوجه منه فقد أزرى به القدر
فثبت الله ما آتاك من حسن في المرسلين ونصراً كالذي نُصروا
إني تفرّست فيك الخير نافلةً فراسةً خالفت فيك الذي نظروا

يعني المشركين، وهذه الأبيات في قصيدة له .

قال ابن إسحاق: ثمّ خرج القوم، وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا ودّعهم
وانصرف عنهم، قال عبدالله بن رواحة :

خَلَفَ السَّلَامُ عَلَى امْرِيءٍ وَدَعْتَهُ فِي النَّخْلِ خَيْرَ مُشِيحٍ وَخَلِيلِ

(١) ذات فرغ: ذات سعة. والزيد هنا: رغبة الدم.

(٢) مجهزة: سريعة القتل. تنفذ الأحشاء: تخترقها.

(٣) الجدث والجدف: القبر.

لما ودع رسول الله ﷺ عبدالله بن رواحة، قال ابن رواحة: يا رسول الله،
 مرني بشيء أحفظه عنك.
 قال: إنك قادم غداً بلداً، السجود فيه قليل، فأكثر السجود، قال عبدالله بن
 رواحة: زدني يا رسول الله.
 قال: اذكر الله فإنه عون لك على ما تطالب.
 فقام من عنده، حتى إذا مضى ذاهباً، رجع إليه فقال: يا رسول الله، إن الله وتر
 يحب الوتر.
 قال: يا ابن رواحة، ما عجزت فلا تعجزن إن أسأت عشرراً أن تحسن واحدة.
 فقال ابن رواحة: لا أسألك عن شيء بعدها.

ويقول زيد بن أرقم، وكان يتيماً في حجر عبدالله بن رواحة:
 فلم أر والي يتيم خيراً منه.
 وقد خرج معه فحمله على حقيبة رحله، وخرج به غازياً إلى مؤتة، فسمعه
 زيد وهو يتمثل أبياته التي قال فيها مخاطباً ناقته:

إذا أدنيتني وحملت رحلي مسيرة أربع بعد الحساء^(١)
 فشانك فانعمي وخلاكِ ذمُّ ولا أرجع إلى أهلي ورائي

(١) الحساء: موضع، معجم البلدان، وأنظر لسان العرب: حسا.

وجاء المؤمنون وغادروني
وردك كل ذي نسب قريب
هنالك لا أبالي طلع نخل
ولا بعمل أسافلها رداء^(١)
بأرض الشام مشتهي الثواء
إلى الرحمن وانقطع الإخاء

[أي إذا استشهدت لم أبال ما تركت من عذي النخل وسقيه^(٢)]
فلما سمعه زيد بكى فخفقه بالدرّة، وقال: ما عليك يا لكع أن يرزقني الله
الشهادة، وترجع بين شعبي الرحل.
وراح ابن رواحة يرتجز لزيد قائلاً:

يا زيدُ زيدَ اليعملات الذبلِ تطاولَ الليلُ هُديتَ فانزِلِ

أي انزل فسُق القوم.
وفي حديث آخر بهذا المعنى: ثم نزل من الليل فصلّي ركعتين ثم دعا فيهما دعاءً
طويلاً ثم قال لي: يا غلام، فقلت: لبيك قال: هي إن شاء الله الشهادة.
ومضى قوله: هنالك لا أبالي طلع نخل... البيت يقول: استشهدت لم أبال ما
تركت من عذي النخل وسقيه.

ثم مضوا حتى نزلوا معان من أرض الشام، فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب
من أرض البلقاء في مئة ألف من الروم، وانضم إليهم من لحم وجذام والقيين وبهداء
وبلي مئة ألف منهم، عليهم رجل من بلي ثم أحد إراشة يقال له: مالك بن زافلة.
فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يفكرون في أمرهم، وقالوا:
نكتب إلى رسول الله ﷺ، فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يُمدنا بالرجال، وإما أن
يأمرنا بأمره، فنمضي له.

فشجّع الناس عبد الله بن رواحة، وقال:

(١) البعل: ما شرب بعروقه من الأرض، أنظر اللسان، بعل.

(٢) عذا: والعذي من النبات: البعل.

يا قوم، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل
الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقابلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به،
فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنين:

إما ظهور

وإما شهادة

وفي رواية أنهم في سيرهم إلى تبوك إذ هم بناحية معان، بضم الميم أو فتحها،
وهي مدينة في طريق بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء، وهي من أرض
الشَّراة، والشَّراة: صقع بالشام بين دمشق ومدينة الرسول ﷺ^(١). وهم بهذه الناحية
مُعان أخبروا أن الروم قد نُذروا أي علموا، وجمعوا لهم جموعاً كثيرة من الروم
وقضاة وغيرهم من نصارى العرب، فاستشار زيد بن حارثة أصحابه فقالوا:
قد وطئت البلاد وأخفت أهلها، فانصرف، فإنه لا يعدل العافية شيء.

وعبد الله ساكت، فسأله زيد بن حارثة فقال: إننا لم نسر إلى هذه البلاد، ونحن
نريد الغنائم، ولكننا خرجنا نريد لقاءهم ولسنا نقاتلهم بعدد ولا عدَّة، فالرأي
المسير إليهم.

فقبل زيد رأيه وسار إليهم^(٢).

فقال الناس: قد والله صدق ابنُ رواحة. فضى الناس، فقال عبدالله بن
رواحه في محبهم ذلك:

جلبنا الخيل من أجاءٍ وفرع
تُعَرُّ من الحشيش لها العُكُوم^(٣)

(١) أنظر معجم البلدان.

(٢) أنظر مختصر تاريخ دمشق ١٢: ١٦٢-١٦٣.

(٣) أجأ: أحد جبلي طيء، والآخر سلمى. وفرع (بالفتح): اسم موضع من وراء الفرك. وقال ياقوت: الفرع: أطول
جبل بأجأ وأوسطه. والظاهر أن هذا هو المراد هنا. وتغر بالعين المعجمة: تطعم شيئاً بعد شيء. يقال: غر الفرج
غرا وغراراً: زفه. والعكوم: جمع عكم بالفتح وهو الجنب. ويروى: جلبنا الخيل من أجام قُرح، وقرح: سوق
وادي القرى، كما عند ياقوت وقد ذكره منسوباً إلى ابن رواحة.

أزلَّ كأنَّ صَفْحَتَه أَدِيمٌ ^(١)	حَدَوْنَاهَا مِنَ الصَّوَّانِ سَبْتًا
فَأَعْقَبَ بَعْدَ فِتْرَتِهَا جُمُومٌ ^(٢)	أَقَامَتْ لَيْلَتَيْنِ عَلَى مَعَانٍ
تَنْفَسُ فِي مَنَافِرِهَا السَّمُومِ ^(٣)	فَرُحْنَا وَالْجِيَادُ مَسُومَاتٌ
وَإِنْ كَانَتْ بِهَا عَرَبٌ وَرُومٌ ^(٤)	فَلَا وَأَبَى مَأْبَ لِنَاتَيْنِهَا
عَوَابِسَ وَالْغَبَارُ لَهَا بَرِيمٌ ^(٥)	فَعَبَانَا أَعْتَتَهَا فَجَاءَتْ
إِذَا بَرَزَتْ قَوَانِسُهَا النُّجُومِ ^(٦)	بِذِي لَجْبٍ كَأَنَّ الْبَيْضَ فِيهِ
أَسْتَتَّهَا فَتَنَكَّحُ أَوْ تَتِيمٌ ^(٧)	فِرَاضِيَةَ الْمَعِيشَةِ طَلَّقَتْهَا

حتى إذا كان جيش المسلمين بتخوم البلقاء، لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف، ثم دنا العدو، وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة، فالتقى الناس عندها، فتعبأ لهم المسلمون، فجعلوا على ميمنتهم رجلاً من بني عُدرة يقال له: قطبة بن قتادة، وعلى ميسرتهم رجلاً من الأنصار يقال له: عُبابة بن مالك أو عبادة بن مالك.

(١) حدونهاها: جعلنا لها حذاء وهو النعل: والصوان: حجارة ملس؛ واحدها: صوانة. والسبت: النعال التي تصنع من الجلود المدبوغة. وأزل، أي أملس صفحته ظاهرة. والأديم: الجلد، هذا ما قاله أبوذر، فيما قال السهيلي: أي حدونهاها نعالاً من حديد، جعله سبتاً لها مجازاً، وصوان: من الصون، يصون حوافرها، أو أحقاقها، إن أراد الأبل فقد كانوا يجذونها السريع، وهو جلد يصون أخفافها. وأظهر من هذا أن يكون أراد بالصوان يبيس الأرض، أي لا سبت لها إلا ذلك.

(٢) معان بفتح الميم: موضع بالشام، والفترة: الضعف والسكون، والجموم: اجتماع القوة والنشاط بعد الراحة.

(٣) مسومات: مرسلات. والسموم: الريح الحارة.

(٤) مأب: اسم مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء. قال السهيلي: يجوز نصبه بفعل مقدر، أو مرفوع على الابتداء.

(٥) البريم في الأصل: خيطان مختلطان أحمر وأبيض، تشدهما المرأة على وسطها أو عضدها. وكل ما فيه لونان مختلطان فهو بريم أيضاً. يريد ما علاها من الغبار، فخاط لون لونها. والدمع المختلط بالإثمد. وهذا أقرب لمعنى البيت: أي أن دموع الخيل اختلطت بالتراب فصارت كالبريم.

(٦) ذي لجب: أي جيش. واللجب: اختلاط الأصوات وكثرتها والببيض: ما يوضع على الرأس من الحديد. والقوانس: جمع قونس، وهو أعلى البيضة.

(٧) وتيم: تبقى دون زوج، يقال: أمت المرأة إذا لم تتزوج.

ثم التقى الناس واقتتلوا، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط
[أي سال دمه فهلك] في رماح القوم.

ثم أخذها جعفر فقاتل بها، حتى إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء
[أي رمى بنفسه عنها] فعقرها، ثم قاتل حتى قُتل، فكان جعفر رضوان الله عليه
أول رجل من المسلمين عَقَرَ في الإسلام. [وعلى فرض صحّة هذا الخبر، فقد
يكون المبرر لعقرها هو خوفه من أن يأخذها العدو فيقاتل عليها المسلمين] وقاتل
حتى استشهد رضي الله عنه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأثابه الله بذلك جناحين
في الجنة يطير بهما حيث شاء بعد أن قطعن يداه في المعركة....

فلما استشهد جعفر أخذ عبدالله بن رواحة الراية، ثم تقدم بها، على فرسه،
فجعل يستنزل نفسه، ويتردد بعض التردد، ثم قال:

أقسمت يا نفس لتنزّلتني لـتـنـزـلنّ أو لـتـكـرـهـنّ
إن أجلب الناس وشدوا الزنّة مالي أراك تكرهين الجنة^(١)
قد طال ما قد كنت مطمئنة هل أنت إلا نطفة في شنة

وقال أيضاً:

يا نفس إلا تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت إن تفعلني فعلهما هديت
وإن تأخرت فقد شقيت

يريد بهذا صاحبيه اللذين استشهدا قبله: زيداً وجعفرأ، وتقول الرواية: ثم نزل،
فلما نزل أتاه ابن عم له بعرق لحم [عظم عليه بعض لحم] فقال: شدّ بهذا صُلبك،
فإنك قد لقيت في أيامك هذه مالقيت، فأخذه من يده ثم أنتهس منه نهسة^(٢).

(١) أجلب القوم: صاحوا واجتمعوا. والرنة: صوت فيه ترجيع شبه البكاء.

(٢) نهس اللحم: أخذه بمقدّم الأسنان، والنهش: الأخذ بجمعها. أنظر لسان العرب: نهس.

ثم سمع الحطمة^(١) في ناحية الناس، فقال: وأنت في الدنيا! ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفه فتقدم...

وروي أنّ الراية لما انتهت إلى عبدالله بن رواحة، جاءه الشيطان فرغبه في الحياة وكرّه إليه الموت، ثم تذكر فصاح بأولئك نفر الذين حضروا ذلك المجلس، الذي بعث إليهم رسول الله ﷺ، فتلا عليهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بَنِيَانٌ مَّرصُوعٌ﴾^(٢) أين ما كنتم عاهدتم الله عليه، قد جاء مصداقه، اصدقوا الله بصدقكم.

فجاؤوه يخبون كأنهم بقر نزعت من تحتها أولادها، فتقدموا بين يديه، وأتى ابن رواحة بلوح من ضلع وقد التاث^(٣) جوعاً فردّه وقال: هذا أدعه فيما أدعه من الدنيا، فشدّ عليهم وشدّوا حتى شدّخوا جميعاً.

إذن، ما إن قتل جعفر بن أبي طالب حتى دعا الناس: يا عبدالله بن رواحة، يا عبدالله بن رواحة.

وكان في جانب العسكر، ومعه ضلع حمل ينهسه، ولم يكن ذاق طعاماً قبل ذلك بثلاث، فرمى بالضلع ثم قال:

وأنت مع الدنيا!

ثم تقدم، فقاتل، فأصيبت إصبعة، فارتجز قائلاً:

هل أنت إلا اصبعٌ دُميتِ

وفي سبيل الله ما لقيتِ

يا نفسُ إلا تُقتلي تموتي...

وواصل أرجوزته هذه وقد ذكرنا شيئاً منها هنا وشيئاً هناك.

(١) الحطمة: زحام الناس، وحطم بعضهم بعضاً. اللسان: حطم.

(٢) الصف: ٤.

(٣) التاث فلان في عمله: أبطأ، والمراد هنا: ضعف. أنظر اللسان: لوث.

ثم قال: يا نفس، إلى أي شيء تتوقين؟!

إلى فلانة؟!

فهي طالق بالثلاثة، وإلى فلان وفلان، غلمان له، وإلى معجف: حائظ له، فهو

لله ولرسوله، ثم ارتجز:

يا نفس مالك تكرهين الجنة

أقسم بالله لتنزلني

طائفة أو لا لتكرهني

فطالما قد كنت مطمئنة

هل أنت إلا نطفة في شئ

قد أجلب الناس وشدوا الرن

وفي خبر أن ابن رواحة لما نزل للقتال طعن، فاستقبل الدم بيده فذلك به وجهه ثم صرع بين الصفين، فجعل يقول: يا معشر المسلمين، ذبوا عن لحم أخيكم، فجعل المسلمون يحملون حتى يجوزوه، فلم يزالوا كذلك حتى مات مكانه.

ويصف الدكتور الجميلي ما دار في غزوة مؤتة بقوله: وفي غزوة مؤتة يواجه المسلمون فرسان الروم بأعداد كثيرة لا تحصى تملأ السهل والجبل، ويستشرف المسلمون عدوهم المدجج بالسلاح، مسلحين باليقين والتقوى، وتقابل الجمعان والتحم الفريقان، وسقط «زيد بن حارثة» أمير جيش المسلمين، فاستلم مكانه «جعفر بن أبي طالب» وسرعان ما سعت إليه الشهادة وعوجل إلى ربه، فكان عبدالله بن رواحة ثالث الأمراء الذين تولوا إمرة جيش المسلمين، فضربوا أجناد هرقل من الروم، وأخذ يصول ويجول في أحشائهم حتى أدركته الشهادة، وما هي إلا لحظات حتى يتناهى خبر الشهداء الثلاثة إلى رسول الله ﷺ وما قدموه من بطولات وفداية، فترحم عليهم واستغفر لهم ثم

أطرق قليلاً ثم قال:

«لقد رفعوا إليَّ في الجنة»

وفي خبر عن أنس: أن رسول الله ﷺ نعى إلى الناس - أو إلينا - جعفرًا وابن رواحة وزيداً وعيناه تذرّفان. ولما قتل جعفر بمؤتة أخذ الراية بعده عبدالله بن رواحة فاستشهد. قال: ثم دخل الجنة معترضاً، فشقّ ذلك على الأنصار فقالوا: يا رسول الله، ما اعتراضه؟

قال: لما أصابته الجراح نكل فعاتب نفسه فشجّع فاستشهد فدخل الجنة، فسُرِّي عن قومه. وفي خبر آخر عن ابن إسحاق أنه قال: ولما أصيب القوم، قال رسول الله ﷺ، فيما بلغني: أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قُتل شهيداً، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيداً.

قال: ثم صمت رسول الله ﷺ حتى تغيّرت وجوه الأنصار، وظنوا أنّه قد كان في عبدالله بن رواحة بعض ما يكرهون، ثم قال: ثم أخذها عبدالله بن رواحة، فقاتل بها حتى قُتل شهيداً. ثم قال: لقد رفعوا إليَّ في الجنة، فيما يرى النائم، على سرر من ذهب، فرأيت في سرير عبدالله بن رواحة ازوراراً [أي ميلاً وعوجاً] عن سريري صاحبيه، فقيل: عمّ هذا؟ فقيل لي: مضيا وتردّد عبدالله بعض التردّد، ثم مضى. وفي خبر أنّ رسول الله ﷺ صعد المنبر، وأمر فنودي: الصلاة جامعة! فاجتمع الناس إلى رسول الله ﷺ فقال: باب خير، باب خير، باب خير! أخبركم عن جيشكم هذا الغازي، إنهم انطلقوا فلقوا العدو، فقتل زيد شهيداً واستغفر

له، ثم أخذ اللواء جعفر، فشدّ على القوم حتى قتل شهيداً، فشهد له بالشهادة واستغفر له، ثم أخذ اللواء عبدالله بن رواحة، فأثبت قدميه حتى قتل شهيداً، فاستغفر له...

وفي رواية قال النبي ﷺ: «مثلوا لي في الجنة في خيمة من درّة كلّ واحد منهم على سرير، فرأيت زيداً وابن رواحة في أعناقها صدوراً، وأما جعفر فهو مستقيم ليس فيه صدور، قال: فسألت أو قال: قيل لي: إنها حين يخشيها الموت كأنهما أعرضا أو كأنهما صدّاً بوجوهما، وأما جعفر فإنه لم يفعل».

وفي خبر عن أنس: أن رسول الله ﷺ نعى إلى الناس - أو إلينا - جعفرأ وابن رواحة وزيداً وعيناه تذرّفان . ولما قتل جعفر بمؤتة أخذ الراية بعده عبدالله بن رواحة فاستشهد

قال ابن عيينة: فذلك حين يقول ابن رواحة :

أقسمت يا نفس لتنزلنه بطاعة منك أو لتكرهنه
فطالما قد كنت مطمئنة جعفر ما أطيب ريح الجنة^(١)

ووقف حسان بن ثابت يوم مؤتة يبكي ويرثي جعفرأ ولما انتنى من رثائه راح يرثي ويبكي زيد بن حارثة وعبدالله بن رواحة؛ ومما قاله في عبدالله بن رواحة:

ثم جودي للخزرجي يدمع سيداً كان ثم غير نزور
قد أتانا من قتلهم ما كفانا فبحزن نبيت غير سرور
وله أيضاً:

فلا يبعدن الله قتلى تتابعوا بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر
وزيد وعبدالله حين تتابعوا جميعاً وأسباب المنية تخطر

(١) حلية الأولياء للاصفهاني ١: ١٢١.

فما هناك مرثية بحقهم ألقاها كعب بن مالك يوم وصول خبر استشهادهم
رضوان الله عليهم .

نام العيون ودمعُ عينك يهمل سحاً كما وكفَ الطبابُ المخضُلُ^(١)
في ليلة وردت عليَّ همومها طوراً أحنَّ وتارةً أتململ
واعتادني حزن فبت كأنني بينات نعش والسّماك موكل
وكانما بين الجوانح والحشى ممّا تأوبني شهاب مُدخل
وجدا على النفر الذين تتابعوا يوماً بمؤتة أسندوا لم ينقلوا
صلّى الإله عليهم من فتية وسقى عظامهم الغمام المسبل
صبروا بمؤتة بلاله نفوسهم حذر الردى ومخافةً أن ينكلوا
فمضوا أمام المسلمين كأنهم فُنقُ عليهن الحديد المرفل^(٢)

ثم يواصل رثاءه لجعفر بن أبي طالب رحمه الله تعالى .
وقال شاعر آخر ممن كان حاضراً غزوة مؤتة :

كفى حزناً أني رجعت وجعفر وزيد وعبدالله في رسم أقبرِ
قضوا نحبهم لما مضوا لسيلهم وخُلفتُ للبلوى مع المتغيرِ
ثلاثة رهط قُدّموا فتقدّموا إلى ورد مكروه من الموت أحمر
فسلام عليك يا بن رواحة قرير العين بين الأبرار الذين صدقوا ما عاهدوا
الله عليه^(٣) .

(١) الطبابة وهي سير بين خرزتين في المزادة، فإذا كان غير محكم ولف منه الماء وقيل الضباب، والمخضُل: السائل الندي.

(٢) الفنق: الفحول من الإبل، الواحد: فنيق. المرفل: الذي تنجر أطرانه على الأرض، يريد أن دروعهم سابقة.

(٣) أنظر ترجمة حياة هذا الصحابي الجليل فيما تيسر لي من مصادر، السيرة النبوية لابن هشام، وتاريخ الطبري، ومختصر تاريخ دمشق لابن منظور، والتاج الجامع للأصول للشيخ منصور علي ناصيف، وصحابة النبي ﷺ للدكتور الجميلي ...